رسمي ابو علي

قط مقصوص الشاربين اسمه ريس

ـ ١ ـ

اخيرا وصلنا الى البناية . كانت الساعة حوالي الثانية عشرة ليلا وثمة ولدان او ثلاثة يغسلون المدخل بالماء والصابون . كان الطقس باردا وقد تلفعت سيمون بمعطف اسود فاخر ذي ياقة من الفراء بدا غير منسجم على الاطلاق مع هيئتها المشوشة ومع بنطلونها المبتل الالوان والمتسخ في اكثر من مكان . اخذنا بصعود الدرج حتى الدور العاشر اذ ان المصعد كان معطلا والكهرباء مقطوعة. وعندما وصلنا كنا نلهث بصوت عال ، فوقفت سيمون في منتصف الممر الطويل كأنها غير متأكدة من مكان الشقة ، ولكنها سرعان ما اندفعت بتصميم نحو احد الابواب واخذت تدق عليه دقات عصبية وهي تنادي « ريّس .. ريس » بصوت حميم يبعث حنينا غامضا . وكانت قد قالت لي اكثر من مرة بانه ليس قطا جميلا على الاطلاق ، فهو قذر الهيأة وقد تطوع احدهم بقص شاربيه ، وان فروته المتسخة لا تخلو من بعض الحشرات، ولكنها استدركت بانجليزيتها الركيكة بان هذا يعود الى ايام تشرده في الشارع واما الان فانه اخذ يعود الى نظافته تدريجيا ..

فتح شخص الباب وهو يحمل شمعة ، وكان شابا ممتلئا يلبس دشداشة فاعتقدت انه ربما يكون سعوديا او كويتيا ، وتساءلت بيني وبين نفسي : « هل من المعقول انه لا يزال لدينا بعض السياح رغم الحرب ؟، واما سيمون فقد انطلقت كالسهم الى احدى الغرف وهي لا تزال تنادي « ريّس .. ريس » فشرحت لرجل الدشداشة المندهش الخائف انها تبحث عن قط صغير ، ولكن الشاب لم يعلق وانما بدا شديد الاهتمام بان يوضح لي من هو ، ولماذا هو موجود في الشقة ، مع العلم انني لم اسأله عن اي شيء . وقال لي انه اخو رضا ، واضاف بانني لا بد ان اعرفه . ولما كان الشاب خائفا ، فقد قررت ان ازعم معرفتي برضا ، فاصطنعت هيئة المتذكر وقلت « رضا ميـن ؟» فأجاب « رضا الرواس » فقلت فورا « آه .. رضا .. » طبعا اعرفه ، ما هي اخباره ؟ فارتاحت اسارير الشاب وبدا اكثر ارتياحا لمعرفتي بأخيه . وكذلك احسست انا ، واستطرد الشاب فيما نحن نمشي باتجاه الغرفة التي تبحث فيها سيمون « رضا صاحب هذه الشقة كما تعلم ، ولكن بسبب الحرب والقذائف .. » وقال اشياء ومعلومات اخرى عن خسائر الاسرة عموما لا اتذكرها بالضبط . وسألت سيمون اذا كانت قد وجدت القط فهزت رأسها بقلق وقالت « مستحيل ، كان هنا في الصباح » ونظرت بشك الى الشاب الذي ارتبك فخطرت ببالي فكرة غريبة وهي ان يكون الشاب قد اكل القط .. وكأنما احس الشاب باتهاماتنا الغامضة فأخذ يدافع عن نفسه ونفى ان يكون قد رأى اي قط على الاطلاق في هذه الشقة التي لم يغادرها منذ الساعة الثانية عشرة ظهرا .. وهنا استدار مقترحا ان نبحث في غرف اخرى في الشقة الواسعة ، فلاحظت تحت الدشداشة شبه الشفافة رقم ٧ مكتوبا بالانجليزية على ما يفترض انه فانلته الداخلية ، فشعرت بالشفقة على الشاب وقررت الا احرجه بمزيد من الاسئلة عن القط مع تأكدي التام بانه ببساطة قد فتح الباب وطرد القط خارجا عندما عاد لتفقد شقة اخيه .

* * *

كنت قد رأيتها في احد مكاتب الثورة ، ولما لم يكن لديّ ما افعله فقد فكرت باقامة علاقة معها ، فملت على صديقي الذي كان يتحدث اليها وسألته عنها ، وعلى الفور اظهر روحه الرياضية وسألها بصوت عال بالفرنسية :

ـ الا تعرفين يوسف ؟

فحولت نظراتها اليّ ورمقتني بنظرة ودية ولكنها لا تدل على شيء فهززت راسي بهدوء وانا ابتسم ، ولكن كان واضحا انها لم تكن متحمسة لمعرفتي اكثر من ذلك .

ولسبب لا ازال اجهله لاحظت ان صديقي يدفعنا بطريقة ما نحو بعضنا البعض ، فاقترح ان يكون الحديث بالانجليزية التي اجيدها ولا يجيدها اي منهما الا قليلا. بدت متعاونة واخذت تتحدث بالانجليزية وهي تبحث عن كلماتها ـ وكان ثمة ما يشغل بالها ، فهي تريد العودة الى جنيف وتتساءل اذا كان من الممكن ان تعود عن طريق بيروت ، فقلت لها :

ـ طبعا .. تستطيعين .. ولماذا لا تستطيعين .. هل ثمة ..؟

فاجابت : ـ بالطبع .. ليست هذه هي المشكلة ولكن المشكلة انني عندما جئت من جنيف جئت الى مطار دمشق لان مطار بيروت كان مغلقا في ذلك الوقت ..وانا احاول ان اجد شركة طيران تقبل ان تأخذني من هنا ..

فهززت راسي وكذلك فعل صديقي امام هذه المعضلة .. واقترحت عليها ان تسأل طيران الشرق الاوسط .. فقالت بيأس :

ـ يا الهي .. هذا ما فعلته قبل اي شيء آخر ، ولكنهم قالوا : مستحيل .

قلت :

ـ اذن في هذه الحالة ، لماذا لا تتصلين بشركة الخطوط السويسرية ، فلربما ..

قالت : ـ هذا هو السؤال : هل هذه الشركة تعمل أم لا ؟ انني لم استطع التوصل الى الاجابة عن هذا السؤال رغم انني اسأل منذ ثلاثة ايام .

« لقد حانت الفرصة » قلت في نفسي ـ فنهضت عن الكرسي واقترحت ان تخابر استعلامات المطار فانهم بالتأكيد يعرفون .. واخذت بالتوجه الى غرفة اخرى في المكتب حيث يوجد التلفون ، فنهضت وقد دب فيها الامل، وهنا نهض صديقي وقال ان عليه ان يذهب ، والى اللقاء، وابتسم لي ابتسامة مشجعة فيما هو يغادر .

بدأت احاول الوصول الى جواب فيما كانت تجلس امامي وهي تدخن بكثافة ، وبعد بضعة محاولات اكد لي موظف الاستعلامات ، وكان لطيفا ، أن مكتب الخطوط السويسرية لم يفتح بعد لان بضعة قذائف قد سقطت عليه وانهم الان يرممونه ويجهزونه للعمل قريبا ، واقترح ان اتصل برقم آخر املاه عليّ فربما يعرفون شيئا عن الموضوع ، فأخبرتها بذلك وهي تقدم لي سيجارة ،وحاولت الاتصال فرن الجرس ولكن لم يجب احد ، ونظرت الى ساعتي وقلت لها بأن لا احد في المكتب ، وربما تحاولين بعد الظهر واخذت انظر اليها بهدوء . دخنا سيجارتين من علبتها ولاحظت انها قد التقطت ما تعتقد انه احدى عاداتنا القومية بتقديم السجاير ، ولكنها التقطتها بطريقة فجة تبعث على الابتسام ، فانني اعتقد اننا اصبحنا نتحفظ بعض الشيء في تقديم السجاير للاخرين .. بالنسبة لها ، اظن انها كانت تريد ان تظهر نوعا من الانتماء لنا بهذه الطريقة .. سيمون المضحكة !

قلت لها فجأة وانا انظر الى ساعتي « هل أكلت ؟» فهزت رأسها بالنفي ، فاقترحت ان نذهب لنأكل وقلت لها « ما رأيك في الذهاب الى الروشة ؟» فاقترحت أن نذهب الى الاسواق التجارية لتلتقط بعض الصور للدمار، فقلت لها اتركينا من الدمار الان ، ثم انني اريد ان ارى البحر فقد مضى زمن طويل منذ ان رأيته لاخر مرة ، فوافقت وتناولت محفظتها وكاميرتها وخرجنا من المكتب .

وعندما اصبحنا في الشارع اقترحت ان نأخذ تاكسي ، ولكنها احتجت واقترحت ان نأخذ «السرفيس» فاعجبتني الفكرة واحساسها بالتضامن المادي مع مناضل يفترض انه لا يملك كثيرا من النقود ، فوافقت . ولكني قلت لها بان علينا ان نمشي عشر دقائق على الاقل قبل الوصول الى اقرب نقطة سرفيس .

وأضفت بانني راغب في المشي وانني افترض انك ايضا تستطيعين المشي لانك من سويسرا حيث هواية الناس الاولى هي التزلج والمشي .. فابتسمت بتعب وطلبت مني الا اعاملها على هذا الاساس حيث انها تفضل ان تنتمي للبشرية كلها ، واضافت بصوت منخفض كأنما تحدث نفسها « لا اعتقد انني احب بلدي فلا شيء يحدث هناك » .

كنا نمشي تحت شمس شتائية دافئة .. كانت خطواتنا متمهلة ، الا اننا كنا تلهث ـ كنت ابذل مجهودا لكي احتفظ بلهجة لا تكشف انفعالي ، واما هي، فكانت اكثر تلقائية وكانت تتحدث من خلال لهاث مسموع .

ولقد فقدت احساسي بالطريق وهي تحدثني عن الاسرة اليهودية التي كانت تجاورهم عندما كانت طفلة، وعن النزعة الانسانية للسيدة اليهودية التي كانت تخبرها بانها تفكر اساسا في الاطفال اليهود والاطفال الفلسطينيين ، وانه من اجلهم يجب ان يعمل الكبار شيئا. فلزمت الصمت مقررا الا ابحث في هذه القضايا الشائكة التي ارمضت روحي ، وكدت اقول لها ان تكف عن هذا الحديث ، ولكني بدلا من ذلك اخذت انظر الى السماء وقلت شيئا عن البحر . واما هي فلم تسمع ملاحظاتي حول الطقس والبحر ، وقالت مكملة حديثها « انني اعتقد ان اسرتي قد تكون يهودية ، فاسم عائلتي هو اسم يهودي، غير انني لا اعرف الكثير عن هذه المسألة فوالداي مسيحيان .. قلت لها سيان عندي ان كانت يهودية او سكناجية او ..

فاستفسرت بفضول عن كلمة سكناجي ، فقلت ربما يكون تحويرا لكلمة « اشكناز » او قد يكون اسما لطائفة يهودية غربية قديمة ـ فسألت بحماس اذا كانوا هؤلاء الذين يطلقون جدائلهم فقلت لها : بالضبط ، وهم ايضا الذين يدهنون هذه الجدائل بالشحم فازداد حماسها وقالت « لقد رأيتهم ذات مرة عندما كنت في اسرائيل » .

اخترقت الكلمة اذني فتوقفت عن المشي بحركة لا ارادية وقلت لها ببطء وانا احس انني آخذ في تعمقي دور رجل امن ماهر :

ـ هل قلت انك كنت في اسرائيل ..

قالت بعفوية دون ان تلاحظ لهجة رجل الامن في : نعم في عام ٧٤ ، بعد الحرب ذهبت كصحفية لارى ماذا حدث لهم هناك .

فسألتها : وكيف وجدتهم ؟

قالت : كانوا لطيفين معي ولكن الاسعار لا تطاق ، انني استغرب كيف بامكانهم ان يعيشوا مع هذه الاسعار الخيالية ..

وهنا كنا قد وصلنا الى احد الحواجز العسكرية . ورغم أن هذه الحواجز لا تعترض الا السيارات فقد رمقنا العسكري المكلف واشار برشاشه ان نقترب وطلب هويتي فاخرجت له هويتي الحركية فتفحصها مليا وهو ينظر اليّ والى سيمون التي اخذت تبحث عن اوراقها . حدق العسكري طويلا في الهوية للمرة الثانية وقربها من انفي وهو يسأل : ما هذه الكلمة ؟ قلت انها اسمي فقال لا ، الكلمة المقابلة للمهنة ، فقلت : مناضل ـ فخفض الهوية ورشاشه معا وهز رأسه بعمق شديد وعلت ثغره ابتسامة ساخرة وعلق فيما هو يعيد الى الهوية « ها .. كلكم مناضلون ! » ونقل نظراته بيني وبين سيمون فلم اجب بكلمة وامسكت بيدها ومشينا دون ان ننظر الى الوراء .

***

لا ادري كيف يمكن ان تسير الامور بيننا بغياب جان ـ بيير فيليبو والذي ظهر منذ اللحظة الاولى لجلوسنا في ذلك المطعم المطل على البحر . فكأنما كان قدر ان يكون جان ـ بيير ثالثنا طيلة الوقت اذ غادر تماما في نفس اللحظة التي غادرت فيها سيمون ، ولكن على طائرة اخرى الى باريس ..

ولقد احسست ومنذ اللحظة الاولى انني لن احب هذا الانسان في اي يوم من الايام ، فهناك اناس لا تستطيع ان تحبهم مهما بذلت من جهد ، ومن المؤكد ان جان ـ بيير كان واحدا من هؤلاء بالنسبة اليّ ..

ولكن ـ وهنا المفارقة الموجعة ـ كان السيد جان من احب الناس الى قلب سيمون ـ بل كان من هذه القلة النادرة التي تستطيع ان تجعل سيمون تطلق تلك الضحكة الشهية التفضائحية والتي كثيرا ما سببت لي الحرج ونحن نمشي في الشارع .

ومن المؤكد ان هذا الحب لم يكن بسبب انه الصحفي الاجنبي الوحيد الموجود في بيروت في تلك الايام الصعبة ، فقد كان هناك العشرات من الصحفيين والجواسيس وما اشبه ذلك من الاجانب ..

انني اعترف ان تعليقاته وتكاته كانت بارعة ، وكنت اجدها كذلك حتى وهي مترجمة الى انجليزية ركيكة . كان شخصا لطيفا وكل شيء . ولكن كان ثمة شيء ينفرني منه ولم يكن للتنافس على سيمون دخل بهذا ، اذ كنت اعرف ان المسألة محسومة لصالحي بشكل نهائي ـ ولكن سيمون كانت توده كثيرا وتسأل عنه ، بل انها بعد ثلاثة ايام من اقامتها معي طلبت مني صراحة ان يقيم معنا في شقتي ، لان نقوده قد نفدت ولا يعرف اين يبيت .. فاستفسرت كيف يمكن ان يكون المرء صحفيا وان تنفد نقوده فقالت بأنه يعمل في الصحافة اليسارية في فرنسا ولذلك فان دخله محدود .. واخذت تتحدث عنه بلهجة جاوزت لهجة الصديقة او حتى زميلة المهنة الى لهجة الام الرؤوم . لقد احسست بالتأثر وانا استمع الى هذه المرأة الصغيرة التي لما تكمل عامها الثاني والعشرين تتحدث بهذه اللهجة الحنونة المشفقة عن رجل عتليت لا يقل عمره عن خمسة وثلاثين عاما ـ الامر الذي جعلني انتقل الى نقيض مشاعري ، فابالغ في ترحيبي به واعرض عليها على الفور ان نتحرك ومنذ اللحظة للبحث عنه . ولكنها لم تبد متحمسة للفكرة واشاحت بيدها وهي تقول :

ـ ليس الى هذا الحد .. سنراه غدا ،

وجلست على ركبتي وهي تغمرني بقبلاتها القلبية .

قلت انني لم احبه عندما رأيته للمرة الاولى في اللحظة التي اخترنا فيها طاولة خارجية في ذلك المطعم . حياها من بعيد وهو يتلفع بكوفية غطت رأسه واذنيه ثم جلس على طاولة تبعد بضعة امتار وشرع يأكل . ثم رفع رأسه وازاح الكوفية قليلا وسألها سؤالا بالفرنسية فاجابته . وعاد الى صحنه ورفع رأسه مجددا وسأل للمرة الثانية فأجابته .. واستمر الوضع هكذا بعض الوقت وهنا احسست انه يمتلك مقصا طويلا لا مرئيا يستطيع به ان يقطع حبل حديثنا في اية لحظة .. ولدى آخر سؤال وجهه وهو يمضغ لاحظت انه يضع نظارات من النوع الدائري الصغير واته اصلع بعض الشيء ، فكرهت نظارتيه وصلعه المبكر ، وكذلك كرهت الكوفية التي يتلفع بها وكدت ان اهتف « الى الجحيم انت وكوفيتك ونظارتاك الدائريتان .. » ولكني لزمت الصمت ، واخذت جرعة هائلة من النبيذ وانا احس ان بطني قد اخذ ينتفخ . نظرت الى سيمون وتوقعت انها ربما تكون محرجة بعض الشيء ـ لست متأكدا ـ ذلك انها ظلت تنقل نظراتها

العادية بيني وبينه وهي تدير رأسها نصف دورة كاملة على الاقل بين حين واخر ـ واخيرا اتت اللحظة التي اصبح فيها الوضع سخيفا فتكفل العزيز جان ـ بيير بوضع حد لذلك لا بانهماكه في صحنه وانما بقدومه الى طاولتنا حاملا صحونه وزجاجاته ، وهنا ادركت ان ما توهمته من حقوق ادبية نحوها لم يكن الا في ذهني .. وابتدأت اهيىء نفسي لتقبل جان ـ بيير كحقيقة واقعة لا مفر منها .

***

في الايام الاولى بدت مشتتة وغير قادرة على التركيز على اي شيء ، وكانت تبدو كما لو انها تبحث عن شيء لن تجده ابدا. وقد اعتقدت لذلك انها من فصيلة الفجر من النساء او انها ليست الا من قطط الشارع .وقد صارحتها بكل ذلك وقلت لها بانني اجدها خطرة ،فسألت لماذا باهتمام ، فقلت لها بانني اعتقد انها من النوع الذي يترك الرجل فجأة ليهوي من أعلى الى ارض صلبة ، فانكرت ذلك بشدة ،ودهشت كيف انني افكر بهذه الطريقة، وسألتني بالحاح لماذا اعتقد ذلك ، فقلت لها انه ليست لديّ اسباب واضحة وانما هو احساس (كانت لديّ اسباب ولكنني لم اجرؤ على تعدادها لانني اعتقدت انها تابعة من احساسي بحقوق لم يثبت حقي بعد في التلويح بها). اشعلت سيجارة جديدة وهزت رأسها بحزن وقالت انني مخطيء تماما . واضافت بانها تكره ان تتحدث عما يسمى بالماضي ، ولكنها مضطرة ان تروي لي قصتها مع الشاب الايراني الذي عاشت معه سنة على الاقل .. وحاولت ان تتذكر اسمه وفرقعت باصابعها عدة مرات وقالت وهي تضحك :

ـ تصور .. لقد نسيت اسمه !

فابتسمت بحكمة كأنما اقول لها :

ـ اترين ! هذا ما اعنيه بالضبط .. انك تعيشين سنة مع رجل ثم تنسين اسمه ..

ـ هميد ... (حميد) .. آه .. هميد .. هذا هو اسمه

وابتسمت بحنان كأنما استحضرته كاملا في مخيلتها ..

حميد .. لقد ظل طوال سنة يردد يوميا بانني لا اعني شيئا في حياته وانه بالنتيجة سيضع حدا لعلاقتنا .. هل تسمعني ؟ كان يقول هذا في الوقت الذي كان ينام فيه معي ثلاث مرات يوميا .. وذات يوم سافر في اجازة بعد ان ودعني الوداع الاخير كما سماه . فأحسست انني اريد ان ابكي ، ولكنني تمالكت فانا لا ابكي ابدا (بكيت بعد يومين).وشددت على يده وقبلته في عينيه السوداوين الجميلتين وعندما تركني كان اول شيء فعلته هو انني قفزت على اول رجل صادفني .

وسألتني :

ـ اليس هذا امرا طبيعيا ؟

فاجبت بأنه امر طبيعي في هذه الحالة ، ولكنني اضفت بان هذه القصة لا تعني اي شيء .

فقالت : انتظر ، لم تنته القصة بعد، واشعلت سيجارة جديدة ، فبعد ان عاد حميد من اجازته كان اول شيء فعله هو انه جاء الى غرفتي حتى دون تلفون فقلت له بان لديّ الان رجلا اخر . فقال لي : اتركيه ، فانا احبك ، وقد جثا على ركبتيه وضم يديه وهو يضرع اليّ كما في الافلام القديمة ..

ونظرت الي كما لو انها تريد ان ترى تأثير قصتها علي وهمهمت : « اترى ؟ انني لست من النساء اللواتي يتركن الرجل هكذا » . واشارت بيدها .

***

كان ريّس هو الآخر يبدو ضائعا فاقد الثقة بنفسه، وكان لا يزال يمشي تلك المشية المترنحة الخائفة التي توحي انه يتوقع ضربة ما في اية لحظة ، وكان ذلك نتيجة تشرده قبل ان تعثر عليه سيمون مرة اخرى صباح ليلة رجل الدشداشة . ولكن حنانها وحبها الثابت له كان يبعث في نفسه الثقة شيئا فشيئا . كان لديها الصبر لتقبله وتدلله في اية لحظة ولو كانت احدى لحظاتنا الخاصة ، وكانت تقبله في فمه المتسخ وفي فروته التي بات امرا معروفا انها تضم بعض الحشرات . وفي اليومين الاولين كان يطيب له ان يقضي حاجته في احد زوايا غرفتنا ، فكانت تنهض من الدفء وتزيل اثاره بالماء والصابون ثم تضع قطرتين من الكاز كما نصحتها ، ولكنها هنا كانت لا تتردد في عقابه بحزم فتصرخ فيه بلهجة غاضبة فيحس بهذا ويهرب مهرولا الى المطبخ واذ تراه مهرولا كان غضبها يتبخر دفعة واحدة فتقول « انظر اليه كم هو لطيف وهو يهرب » فتناديه بحنان مجددا فيعود اللعين وتحتضنه بذات الشغف والحنان الاموميـ وعندما تفعل ذلك ، وحيثما يحس بالدفء ، في السابق والان ، يستدير على نفسه ويبدأ برضاعة واحد من اثدائه (للقط ايضا اثداء وليس للقطات فقط) بصوت مسموع. وعندما لاحظت هذا للمرة الاولى احسست بالتقزز عندما شاهدت نتوءا احمر في بطنه معتقدا انه نوع جديد من المرض ، ولكن سيمون شرحت لي ان هذا ليس الا احد اثدائه وانه بهذا العمل لا يقوم الا بعملية تعويض سيكولوجية ، وان ريّس عندما كان صغيرا جدا لم يرضع من امه المدة الكافية لسبب او لآخر ، وهو لهذا يقوم الان بهذا التعويض تماما كالطفل الذي يمص ابهامه بعد الفطام ..

جميل . ولكن جان ـ بيير الذي كان يستمع ، وجد في كل هذا امرا مبتذلا ومبالغا فيه ، واكد ان هناك ملايين من الاطفال الذين هم بحاجة الى الحنان اكثر من هذا القط ، وانتقل رأسا وسط اعتراضات سيمون الى هجوم كاسح ضد ما اسماه الولع الاوروبي الذليل بالحيوانات المنزلية ، وقال بلهجة حاسمة وارنبة انفه ترتجف :

ان هذا لا يعدو كونه نفاقا وعهرا بورجوازيا ..

وهنا فقدت سيمون اعصابها واخذت تتحدث بالفرنسية ناسية ان تعتذر لي كعادتها عندما تريد أن تعبر عن نفسها بدقة امام جان ـ بيير ..

وفقد جان اعصابه بدوره ، واما انا فقد بقيت اتفرج على هذه المشاحنة العنيفة بهدوء دون ان افهم شيئا الا كلمة « تل الزعتر » والتي اصبحت تتردد بمعدل مرة كل عشر ثوان على الاقل . واحمر وجه جان ـ بيير فوق انه احمر اصلا ، كما اثبتت سيمون انها شرسة في الدفاع عن ارائها وعن ريّس (وعني بالطبع لانني احبه ايضا) . واما انا فقد احسست ان لا مكان لي في هذا النقاش العائلي فتوجهت الى المطبخ حيث فتحت علبة سردين اعطيت ريّس نصفها واكلت نصفها الآخر .

***

كانت عيناها زرقاوين في الصباح وخضراوين في الظهيرة وزيتونيتين في المساء . وكانت لها اطول اهداب سوداء رايتها في حياتي ، وقد اعتقدت انهما اصطناعيتان وقلت لها ذلك ، وحتى تثبت العكس اخذت تشدهما بقوة فخشيت ان يحدث لها مكروه فامسكت بيدها وانا اقول : « او.كي انني مخطيء » . كان وجهها الاشقر مليئا بالنمش الذي تعودت عليه واصبحت اراه جذابا . كانت زهرة برية ولها شفتان دسمتان شهيتان ،وكنت ارى فيها ، وخاصة عندما تغمز بعينها اليسرى ، سحر اول خلية انثوية تعرف كيف تكون المرأة ، اما مشيتها فكانت مضحكة اذ كانت ساقاها النحيلتان تتحركان بدون توافق ، لدرجة انني اعتقدت انها ربما اصيبت بشلل الاطفال عندما كانت طفلة ، ولكن بعد سؤالها اتضح انها تمشي هكذا ..

كنت كثيرا ما احدّق في وجهها بتفحص عميق ، فتسألني بماذا افكر فكنت اقول لها بانها تذكرني بشخص ما اعرفه فتسأل من ؟ فأقول : رجل . واخيرا وبعد ايام لمعت في ذهني فكرة ، وهي ان لها ملامح من صديقي سميح القدسي فقلت لها ذلك فهتفت باستنكار

ـ ومن هو سميه الكدسي بحق الشيطان ؟

فرويت لها قصة هذا الصديق الذي عرفته في عمان قبل عشرين سنة على الاقل والذي سافر بعد التوجيهية الى تركيا للدراسة وتحصيل العلم ، ولكنه بدلا من ذلك نسي لماذا ذهب واخذ يطارد النساء التركيات ويرسل لوالده اخر كل سنة ان دراسته على ما يرام وظل على هذه الحال خمس سنوات ، ووالده معتقد انه سيتخرج بعد سنة على الاكثر ـ وحتى يغطي سميح موقفه ويمنع اخباره الحقيقية عن والده كان يستخدم تكتيكا ذكيا اذ كان يستخدم كل قادم من عمان الى تركيا لسبب او لاخر فيكرمه ويحتفي به بكل الوسائل حتى اذا ما حانت عودة هذا الزائر شد سميح على يده بقوة وهو يقول له « استر على ما ستر الله ».

وذات مرة لاحظت ان لها ابتسامة دسمة تشبه ابتسامة حسين فهمي الممثل المصري المعروف فقلت لها ذلك فاغتاظت وادارت ظهرها وهي تقول بصوت طفولي :

« انت لا تشبهني الا بالرجال » فشرحت لها انني لا اقصد ان اسيء الى مشاعرها وكل ما في الامر ان ابتسامتها تشبه بالفعل ابتسامة حسين فهمي . واقترحت عليها ان نذهب الى سينما ستراند في شارع الحمرا لتتأكد انني لا أمزح (كان يعرض له فيلم لحسن الحظ) فوافقت وذهبنا الى مدخل السينما حيث شاهدنا خمس صور يبدو فيها النجم المصري مبتسما تلك الابتسامةالدسمة في جميع الصور . ولما تأملت الصور بفضول اطلقت ضحكتها الفضائحية ولم تكتف بذلك بل رفستني ثم التصقت بي وهي تهمس « موتامور » وارادت ان تقبلني فمنعتها وانا انظر حولي قائلا « ليس هنا » .

***

لقد عبرنا بهدوء من الوحشة الى الالفة الى الاتحاد واصبحنا غير قادرين على النوم الا اذا رقدت عارية بين ذراعي حتى الصباح ..

وكانت تهمس لي بونجور صباحا ومساء وفي الليل، وكانت عيناها تتوهجان بالضياء والعسل ..

فليباركها الله تلك المرأة الصغيرة .

لقد رحلت وتركت لي قطها وعلينا ان نتدبر امرنا معا في هذا الشتاء الطويل .

بيروت

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .